وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة عمار ثليجي – الأغواط
كلية الآداب و اللّغات
قسم اللّغة و الأدب العربي

مذكرة ماستر

تقديم الطالبة: وهيبة تخام

الميدان: اللّغة والأدب العربي

الشعبـــة: دراسات أدبية

التخصص: أدب عربي قديم

المنحى الصوفي في شعر الأمير عبد القادر

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الصفة
د.بلغربي عبد القادر	محاضر – أ-	رئيسا
د.محمد بيتر	محاضر– ب–	مشرفا ومقررا
د. لخضر ذيب	محاضر- أ-	مناقشا

السنة الجامعية

1443هـ/1444هـ الموافق لـ 2022/2021

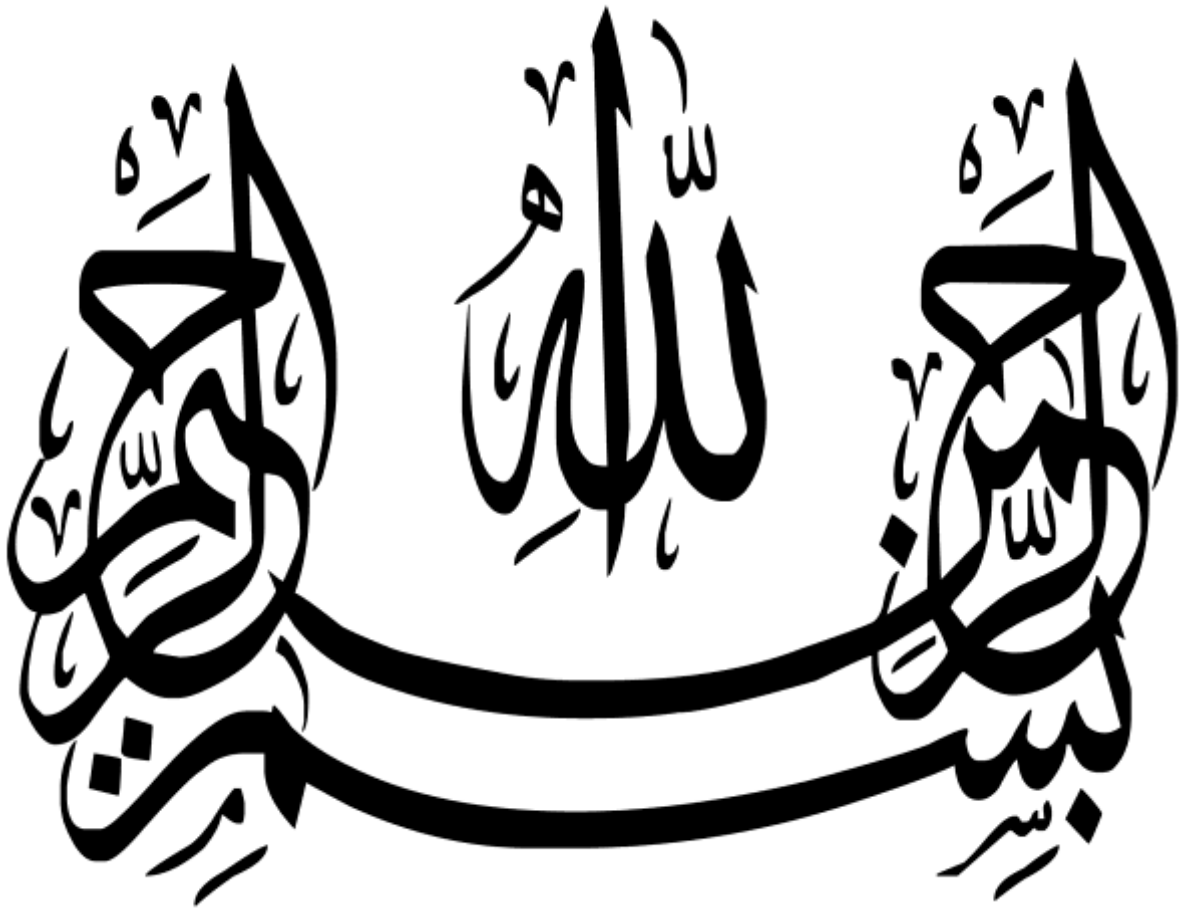
بسم الله الرحمن الرحيم

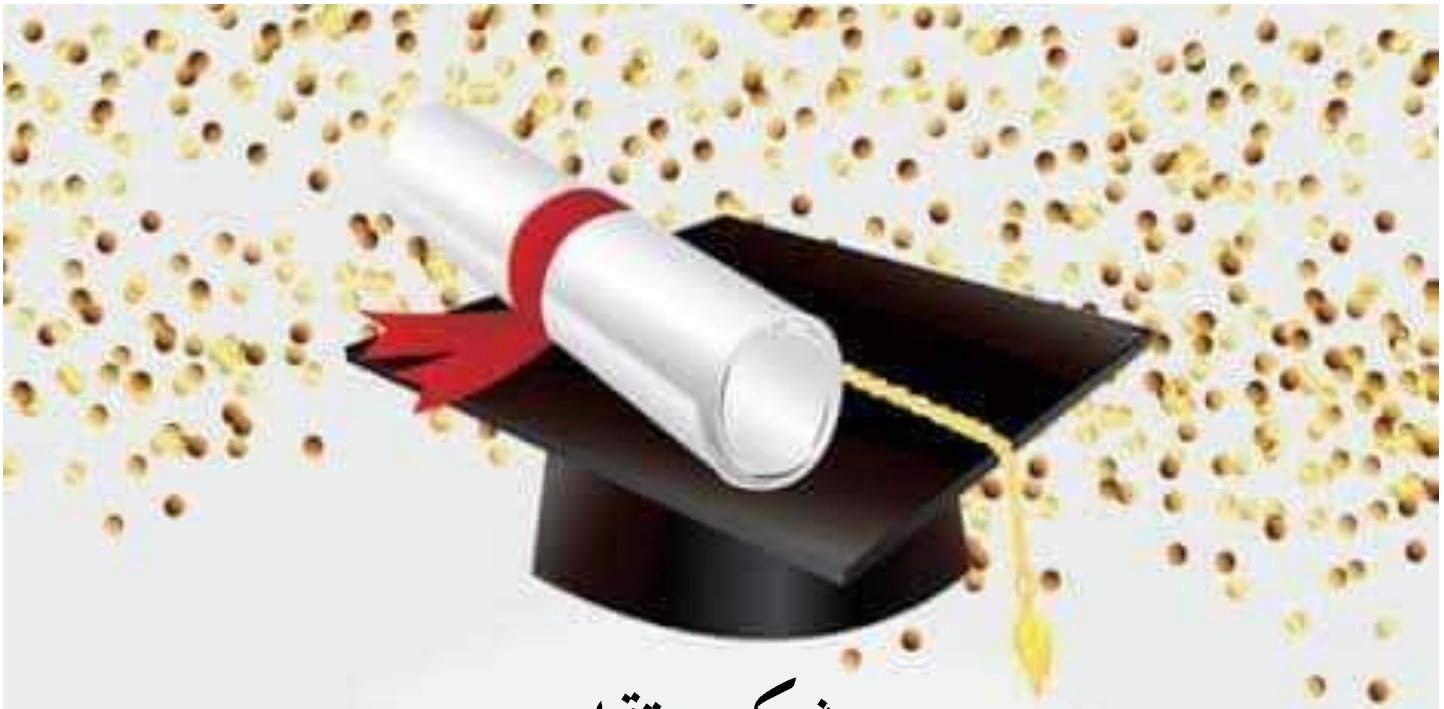

شكر وتقدير

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم

"من لم يشكر الناس لم يشكر الله"

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

الحمد لله على إحسانه و الشكر له على توفيقه و إمتنانه و نشهد أن لا إله إلا الله و حده لا شريك له تعظيما لشأنه و نشهد أن سيدنا ونبينا محمد عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه صلى الله عليه و على آله و أصحابه و أتباعه وسلم.

بعد شكر الله سبحانه وتعالى على توفيقه لنا لإتمام هذا البحث المتواضع أتقدم بجزيل الشكر إلى الوالدين العزيزين الذين أعانوني و شجعوني على الإستمرار في مسيرة العلم والنجاح و إكمال الدراسة الجامعية و البحث، كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى من شرفني بإشرافه على مذكرة بحثي الأستاذ الدكتور " **محمد بيتر** " الذي لن تكفي حروف هذه المذكرة لإيفائه حقه بصبره علي، ولتوجيهاته العلمية التي لا تقدر بثمن؛والتي ساهمت بشكل كبير في إتمام و إستكمال هذا العمل كما أتشكر اللجنة المناقشة لمذكرتي.

"رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي و على والدي و أن أعمل صالحاً ترضاه و أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين".

إهـــــــــداء

أهدي عملي هذا إلى نبراس العطاء أبي الغالي

إلى رمز الحب وشعلة الحنان أمي الحبيبة

إلى الروح الطاهرة جدتي رحمها الله

إلى إخوتي : مباركة وزوجها، مليكة وزوجها، أمينة وزوجها، إلى فاطمة وإلى أخي العزيز ياسين

وإلى حبيبة قلبي أميرة

وإلى الكتاكيت الصغار: مريم، أنس ، ياسين

إهدي ثمرة جهدي إلى صديقاتي الغاليات على قلبي اللتان أعتبرهما جزءا مني : مامة زخروف ، سمية مداني

إلى كل الصديقات الالتي جمعتني بهم الجامعة : بتول، صفاء ، أم حامد، العاليا ، أسماء ، حليمة، منى ، سارة.

إلى كل زملائي في العمل

إلى كل من نسيهم القلم وحفضهم القلب

وهيبـــــة

فهرس المحتويات

شكر وتقدير ..... د

فهرس المحتويات ..... ه

مقدمة: ..... أ

المدخل: بين التصوف والأدب

مفهوم التصوف: 4

صلة التصوف بالأدب: 5

الفصل الأول: ماهية التصوف عند الأمير عبد القادر 10

أولا: مفهوم التصوف لغة واصطلاحا: 11

ب) التصوف إصطلاحاً: 12

ثانيا: نبذة عن حياة الأمير عبد القادر: 15

ثالثا: مفهوم التصوف عند الأمير عبد القادر : 19

أ- تربيته الدينية: 22

ب- انتماؤه إلى آل البيت النبوي: 23

ج- عزلته في منفاه بأمبواز: 24

د- نزعته الإنسانية: 24

هـ- تركه الحياة السياسية والعسكرية بعد استلامه: 25

الفصل الثاني

المعاني الصوفية في الديوان 26

1/ رحلة الأمير الصوفية: 27

2/ الخمرة عند الأمير: 29

3)الخمرة هي العلم: 31
4)الهجرة إلى الخمرة: 32
5/ الغزل الصوفي: 35
أ)وصال الحبيب: 36
6/ مقامات الأمير عبد القادر من خلال ديوانه: 38
1- المقامات: 38
2/ الأحوال: 39
7/ قصيدة الغيب للأمير: 40
9/ وحدة الوجود: 43
شيوخ الأمير و أئمته: 46
خاتمة: 49
قائمة المصادر والمراجع 50

مقدمة

مقدمة:

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره،ونعوذ بالله من شرور انفسنا ،ومن سيئات اعمالنا ،من يهده الله فلا مضل له ، من يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلاه إلا الله وحده لا شريك له ،وأشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله.

إن التصوف هو أحد أبعاد الدين الإسلامي بعده الباطني والداخلي ان صح العبير انهة الشكل الخاص بالروحانية الإسلامية المعرفة الصوفية كما هو متداول ومعروف، فهو تسام بالروح فوق كل ماديات الأرض وشهواتها، لأن الصوفي كما يقول أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء أبو حيان التوحيدي هو ذلك الانسان الكبير الذي يتخطى الحدود التي رسمتها مادته مصداقا لقول النبي الكريم " إن الله لا ينظر الى أجسادكم ولا صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم " والأمير عبد القادر واحدا من هؤلاء الصوفيين الذين بدأوا طريقتهم وبالمجاهدة والرياضيات، لا بالتأمل والتفكير فالقلب وحده الذي يساعدهم على الوصول الى الحق، والأمير يفضل القلب على العقل للوصول الى الله، وفي هذا يقول الأمير عبد القادر في الموقف السابع والثمانين من كتاب المواقف تفسير للحديث " إن الله يبصر ويرى جميع الأشياء حال عدمها وحال ايجادها...." وإذا كان الجسد في المجد والقلب في السوق أو كان الجسد في أحد الأماكن الشريفة، مكة أو المدينة، أو بيت المقدس، والقلب في غيرها من المشرق أو المغرب ويعد الأمير عبد القادر أول شاعر جزائري حديث كتب في التصوف نثرا وشعرا، فالشعر الصوفي عنده تلك القصائد التي اتجه فيها الى الحديث من القضايا التي عرفت في الفكر الصوفي إذ يحتل مكانة هامة في الأدب الجزائري، من خلال هذا تجلت ملامح

الأمير بصفة واضحة لا لبس فيها كيف لا والأمير شاعر متصوف أصلا فهو من أسرة صوفية وأحد رجال التصوف، لذلك المعاني الصوفية .

والاجابة عن هذه الإشكالية رصدنا خطة تمثلت في مدخل و فصلين فالجناني مدخل ماهية التصوف عند الامير والاسباب والدوافع والفصل الثاني في تناولنا المعاني والصور الصوفية من خلال شعره واٍنهينا بخاتمة كانت حوصلة لبحثنا كما اعتمدنا على مجموعة من المصادر والمراجع اهمها كتاب المواقف في التصوف والوعظ والارشاد وكتاب الامير عبد القادر الجزائري وادبه وديوانه معتمد على المنهج الوصف التحليلي خاصة في جانب التطبيقي.

المدخل: بين التصوف والأدب

مفهوم التصوف:

رغم كثرة ما كتب عن التصوف فما أقل ما عرف عنه، ورغم التباين الواضح فيما كُتب عنه، من مؤيدين أفرطوا في تأييده ومعارضين اشتدوا في نقده فما أقل الحقائق الأكيدة التي عُرفت عن التصوف، بل أن تعريفه لم يصل فيه المجتهدون إلى قول متفق عليه ولفظ محدد له ولم ينتهي الإختلاف عند حد تعريفه بل تعداه إلى أصل التسمية فهناك من يرى أن لفظة التصوف من لفظ (سوفيا) اليونانية التي معناها الحكمة والتصوف هو طلب الحكمة مهما كانت، وهاك قول آخر يرى بأن لفظ التصوف هو من لبس الصوف فهو متصوف فمن ارتدى الصوف عامداً لبسه، قاصداً هدفه فقد تصوف، فهو كذلك مرتبط بصفاء الروح، وقيل أنها من التصفية أي تصفية الإنسان فكراً ويقيناً من كل ما هو غير الله وتعالى وعباد الله المخلصين وقد قال أحدهم:[1]

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قدماً وظنوه مشتقاً من الصوف

ولست أمنح هذا الإسم غير فتي ما في صافي حتى لقب الصوفي

وهكذا تختلف آراء العلماء والباحثين في أصل إسم التصوف وتعريفه مما نجم عنه عدم إتفاقهم على تقديم مفهوم موحد للتصوف، "فمعروف الكرخي" يقول: «التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق».[2]

أما ذو النون المصري فيقول: «الصوفي من لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب [3] ويقول "سهل الشتري": «الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر» ويقول "الجنيد": «التصوف أن يختصك الله بالصفاء فمن اصطفى من كل ما

[1] محمد إبراهيم الجيوشي، بين التصوف والأدب، مكتبة أنجلو المصرية، 1964، ص 10.
[2] عبد الرزاق نوفل، التصوف والطريق إليه، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان 1980، ص 17.
[3] التصوف والطريق إليه، ص 18

سوى الله فهو الصوفي»[1]، ويقول أيضا: «ما أخذنا لتصوف عن القيل والقال ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات لأن التصوف هو صفة المعاملة مع الله تعالى»[2]، ويقول الغزالي: «التصوف عمل مبني على العلم وقطع عقبات النفس والتسترة عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير الله وتحليته بذكر الله»[3].

ومن هنا نرى أن هذه الأقوال المتعددة تثبت صحة ما ذهبنا إليه من عدم وجود تعريف ثابت، إذ نجد أن بعضهم عرفه بأكثر من تعريف، وبذلك تكون حقيقة التصوف هو كل هذه التعاريف وأمثالها مجتمعة، إذ لا نستطيع أن نضع له تعريفا جامعاً، مانعاً باعتبارها مذهباً، أو علماً، أو فكرة، وقد أدرك الصوفية أنفسهم هذا فقد روى عنهم أن الطريق إلى الله كعدد أنفس بني آدم ومهما اختلفت هذه الآراء فهي تصب في نهر واحد وهو أن التصوف سلوك إلى الله ومحاولة للاتصال به بهدف تحرير الروح من الأغلال المادية والقيود الجسدية عن المكان وتتخطى حاجز الزمان متجهة بنورها، وحبها وشوقها إلى الله فهو ليس بوهم أو خيال بل هو حقيقة يعيشها كل من اختار طريق التصوف، وكما تعددت أقوالهم عن التصوف تعددت أيضا تعاريفهم للصوفي، فهو عند ذو النون المصري: «.... من إذا نطق أبان عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بمقطع العلائق».

صلة التصوف بالأدب:

كما عرفنا أن الصوفية، نهجوا في الحياة منهجاً خاصاً، اختلفت نظرتهم إليها عن نظرة غيرهم إلا أنهم شاركوا غيرهم في كثير من الآراء والمشاكل التي تعرضوا لها في محيط حياتهم، فالصوفية كغيرهم من الناس كانوا بأمس الحاجة إلى وسيلة تعبير عما يجول في صدورهم من مشاعر،

[1] التصوف والطريق إليه، ص 19.
[2] المصدر نفسه، ص 19.
[3] المصدر نفسه، ص 20.

وأحاسيس، ومناجاة، ومن عشق ووجد وحنايا قلوبهم وتصوير ما يدينون من الآراء والمعتقدات في قالب فني جميل وما يتراءى لهم من تأملات ولمحات إلهية وإلهامات قلبية، فلقد إستطاعوا إلى جانب ذلك معرفة خفايا النفوس وشرح خلجاتها والتعمق في أسرارها، والنظر في السلوك والأخلاق وهذا كله دلالة على قدرة الدقة والفحص لديهم وخبرتهم الواسعة بالنفوس وأحوالها، وقد تجسد هذا كله في المقالات والبحوث القيمة والقصائد التي بلغت الذروة في الجمال الفني، والتصوير البديع والنظر لصعوبة المواضيع التي تطرقوا إليها فلقد لجؤا إلى الرمز والإشارة في تعابيرهم.

واستعانوا بالصور والتشبيهات والأخيلة في الإبانة في أغراضهم والكشف عما يختلج في نفوسهم والتعبير عن أحوالهم، فهم أو من أوجد المذهب الرمزي في الأدب العربي بلا نزاع وهم دعاته والواضعون للأسسه، وما يشهد على ذلك آثارهم من شعر ونثر فذهبوا بالرمز مذاهب شتى فمنهم من رمز بالخمر ومنهم من رمز بالحب فمن هذا تعرف أن الرمزية نشأت مع التصوف في أول عهد به، والصوفية أنفسهم قد ثبت عنهم ما يفيد ذلك فقد قال "ابن عربي": «ليس في استطاعة أهل المعرفة إيصال شعورهم إلى غيرهم وغاية ما في هذا الاستطاع هو الرمز عن تلك الظواهر».[1]

و"لابن عربي" قصيدة يشير فيها إلى استعمال الرمز في تعبيراته وكتاباته أوردها في ترجمان الأشواق منها:[2]

كل ما أذكـــر من طـــلل أو ريـــوع أو مكان كلمـــــا

وكذا السحب أذا قلت بكت وكذا الزهر إذا ما ابتسمـــا

أو بدور في خدور أفـــلت أو شموس أو نبات أنجما

[1] بين التصوف والأدب، ص 48.

[2] بين التصوف والأدب، ص 49 الإحالة إلى ابن عربي: ترجمان الأشواق.

أو بروق أو رعود أو صيـــا أو رياح أو جنوب أو سما

وقد نجم عن هذا اللون من التعبير أن إنفرد الصوفية بلغة خاصة بهم وإصطلاحات لا تتعداهم وأساليب تحمل سمتهم دون غيرهم حتى لقد دعا ذلك بعضهم أن يؤلف في معاني هذه الإصطلاحات وآخر من عرفنا من هؤلاء الشيخ "حسن رضوان" (المصري) من صوفية هذا القرن، وكان للنثر والشعر مجالاً فسيحاً للصوفية حينما يُقررون رأياً أو يسجلون لمحة من لمحات القلب، إلا أن النثر قد كان له النصيب الأكبر من آثارهم والشعر الصوفي قليل بالمقارنة مع النثر وإن كان في الذروة من الجودة والإتقان، وكتب الصوفي حافلة بالنثر المنسوب إلى مشائخ الصوفية، خاصة كتب التراجم منها، مثل: "طبقات الصوفية" "لعبد الرحمن السامي" ومن الشعراء أظهرهم "ابن الفارض"، "محي الدين ابن عربي"، "النابلسي" هذا مقدار ما بين التصوف والأدب من صلات، واختيارهم للمذهب الأدبي في التعبير عن آرائهم وأفكارهم وتسجيل خواطرهم ولمحاتهم، مما نتج عنه ظهور الأدب الصوفي.

فالأدب في أصل إطلاقه صفة من صفات النفس ثم تطور مع الزمن حتى صار متعارفاً على ما ينتجه الأديب والشاعر من آثار شعر أو نثر يترجم عن أحاسيسه وعواطفه بصدق وليصل النص الأدبي إلى درجة عالية وليصل النص الأدبي إلى درجة عالية من الجودة والاتقان كان عليه أن يستكمل عناصره الأربعة وهي: الفكرة – العاطفة – الخيال- الأسلوب فهذه العناصر هي التي يجعله ذو أثر فني ممتاز، ومن الطبيعي أن النص الذي يصور فكرة عالية، يهدف إلى غرض نبيل يكون أجمل وقعا، وأحسن تأتيا، وأقوى أثراً في النفوس والقلوب، فالمهمة الأولى للأدب العمل على بث الصفات الكريمة والرقي بالأفكار والأخذ بأيدي ناشئة حتى يبلغوا شأناً خليقا بالرجولة والمروءة، والنظر في الآثار الصوفية على ضوء هذه الخطوط التي قدمناها، نرى هل أوفت بما اشترط الأدباء في الأدب؟، وهل كان لها هدف معين تسعى إليه، أم أنها كانت شطحات لا تجمعها فكرة معينة؟[1]

[1] التصوف الإسلامي ج1، ص 113، نقلا عن كتاب بين التصوف والأدب، ص 55- 56.

من خلال نظرة الباحث على النتائج الصوفي في الشعر والنثر، تجعله يقرر أن الأدب الصوفي قد أوفى على الغاية والجودة، وبلغ الذروة في الإتقان لما يجول في ثناياه، من أخيلة بديعة وعواطف صادقة يكاد يحسى بها ويلمسها،زد على ذلك ما امتاز به الصوفية أنفسهم من خصوبة في الخيال،ونفوس مشرقة، وأرواح شفافة جعلتهم يحسون إحساساً قوياً بما يقع في قلوبهم من معان وأفكار حتى فاضت بأرقى الصور الشعرية وأبدعها، ذلك لأن الأدب الصوفي هو جزء من التصوف.

وقد يتساءل المرء إذا كان لصوفية هذا الأدب الذي تغالي في قيمته، فلماذا لم يحظ من كتاب الأدب ومؤرخيه بكلمة ترسل أو رأي يقرر؟

ولعل السر في ذلك أنه قد وقر في أذهان الناس منذ القدم أنه لا صلة بين الأدب والدين، والصوفية هي دعوة دينية متطرفة، فذلك انصرفت عنها أنظار الباحثين في الأدب والمؤرخين له، واندفعوا إلى دراسة الأدب الذي إتجه إلى الخدود والشفاه واستمدت ينابيعه من الكؤوس، و لم يلتفتوا ناحية الأدب الصوفي بالرغم مما يحفل به من آثار لا تقل روعة، إن لم تفق ما أثر عن فحول البيان والشعر "كالجاحظ" و"البحتري" و"المتنبي" إذ يقول الدكتور "زكي مبارك" مشيراً إلى هذا الإغفال «.... لعل السر في إغفال الأدب لهذا النتاج الرفيع مع ما يحفل به من أخيلة وصور ومعاني، أنهم لم يضعوا البلاغة الصوفية في الميزان وذلك يرجع من ناحية إلى الصوفية أنفسهم، وهو إنحيازهم عن الأدباء وانقطاعهم إلى خلواتهم، ومن ناحية أخرى إلى الأدباء أنفسهم ذلك أنهم أقبلوا على الصور الحسية إقبالاً، شغلهم عن الأدب الذي يصور أحوال الأرواح والقلوب.... ».[1]

وجملة القول أن الكتب الصوفية هي كتب تفيض بالأخيلة، والصور والتعابير في روعة وقوة، ويزيد في جمال الأدب الصوفي أنه موصول يعلم النفس، وأن غاية نبيلة هي غرس الخلق الشريف في

[1] التصوف الإسلامي ج1، ص 113، نقلا عن كتاب بين التصوف والأدب، ص 55- 56.

نفوس الرجال «ذلك لأنها أداب ناس عرفوا الدنيا وأهلها ثم ملوا المجتمع وانقلبوا عليه يصفون عيوبه ومقاتلة بأقلام تنضح بالسم الزعاف».[1]

وتلخص مظاهر الأدب الصوفي في وصف الدنيا، والمناجاة، والعشق الإلهي والمواقف والمخاطبات والأحزاب والأوراد، ووحدة الوجود، والمدائح الدينية، ومن كبار المتصوفة الذين أبرزوا مهارة فائقة في توظيف الأدب لخدمة التصوف وهو "الأمير عبد القادر الجزائري"، هذه الشخصية العظيمة التي آثارت اهتمامنا وكانت محط دراستنا.

[1] التصوف الإسلامي ج1، ص 124، نقلا عن كتاب بين التصوف والأدب، ص 58.

الفصل الأول: ماهية التصوف

عند الأمير عبد القادر

أولا: مفهوم التصوف لغة واصطلاحا:

أ) **التصوف لغة:** جاء في لسان العرب: "صوف الصوف للضان وما أشبه، قال الجوهري: الصوف للشاه والصوفة أخص منه وقال ابن سيدة: الصوف للغنم، ولشعر الماعز والوبر للإبل والجمع أصواف. وقد يقال الصوف للواحدة على تسمية باسم الجميع، حكاه سبويه وقوله:[1]

حلبانة ركبانة صفوف تخلط بين وبر وصوف

ولية صافية: يشبه شعرها الصوف.

صوف البحر: شيء على شكل الصوف الحيواني.

نصرف الكرم: بدت نواصيه بعد الصرام.

لقد تعددت الآراء في أصل اشتقاق كلمة "صوفي" وذلك في الفكر لصوفي والمدرسة الصوفية برمتها وذهبت التأويلات لأصل الإشتقاق مذاهب شتى منها ما يوافق القواعد الصوفية ومنها ما يخالفها، حيث رشحت ألفاظ عديدة لتكون أصلاً لكلمة صوفي منها: "الصفاء، لصفوة، الصوفية، صوفيا، صوفة، الصوفة المرمية، ينوصوفة، الصوف" يرى آخرون أن أصل اشتقاق كلمة "صوفي" من الصف بمعنى أن الصوفي من حيث الروحانية يعتبر من الصف الأول بين يدي الله تعالى أو لاتصاله عزوجل الظاهر التقشفي: "يتخذ من صدار الصوف لباساً وشعاراً في آن معًا لامتداد لتقاليد الصوفية بشأن توارث ما عرف عندهم "بالخرفة" والتي يزعمون أن الإمام علي بن أبي طالب قد ألبسها الحسن البصري وعهد إليه بأمر لطريقة الصوفية، فالصفاء والصفو الذي اقترح أن يكون أصلاً لاشتقاق كلمة صوفي".[2]

---

[1] ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب ج9، دار صادر، لبنان، ط ، 1992م،

[2] محمد علي كندي، في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديدة، لبنان، ط1، 2010م، ص 46.

ب) التصوف إصطلاحاً:

لتصوف في الأصل مصدر لتصوف أي لبس الصوف، لأن لبس الصوف كان علم لزهادة والفتوى منذ القديم، فقد كان لباس موسى، وعيسى، الحنفيين في الجاهلية، ويقول ابن عمر: "كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فأتاه قوم من قبل المغرب عليهم ثياب الصوف، وعن سلمان لفارسي قال: "جاء المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عينة حصن والأقرع بن حاس وذووهم، فقالوا: يا رسول الله إنك لو جلس صدر المسجد ونحيت عنا هؤلاء، وأرواح حياتهم يعنون أباذر، وسلمان فقراء المسلمين وكان عليهم حباب الصوف لم يكن عندهم غيرها جلسنا إليكم" عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "براءة من الكبر لبوس الصوف" وقال الحسن: والله لقد أدركت سبعين بدرياً أكثر لباس الصوف".

يعلل سراج الطوسي فيه التصوف إلى الصوف بقوله: لأن لبس الصوف كان دأب لأنبياء عليهم السلام، والصديقين، وشعار المساكين المتنسكين ولذلك يقول مالك ابن دينار "يا قارئ أنت قارئ؟ ينبغي للقارئ أن يكون عليه ذراعة صوف".[1]

قد تعددت تعريفات التصوف وتكثرت تكثرا لافتًا وذهب البعض إلى أنها تجاوزت ألفًا من التعاريف، كما ورد في قواعد "التصوف" لأحمد زروق إذ يقول "ماهية لشيء، حقيقته، وحقيقة ما دلت عليه جملة وقد حد التصوف ورسم وفسر وجوه تبلغ نحو الألفين".

يقول أبو حسن النوري[1]: التصوف: "الحرية، والكرم وترك والتكلف والتمسك بالسفاء" وعند الجنيد البغدادي:[2] "خلق فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في التصوف، وقال أيضًا التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة".

[1] عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي الإسلامي، نشأته وتطوره، دار المغرب للدراسات والنشر والترجمة، سوريا، 2010، ص 68، 69.

ويعرف ابن خلدون التصوف: "هو العكوف على العبادة والإنقطاع إلى الله تعالى، الاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه، والإنفراد عن الخلق في خلوه بالعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة السلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني، وما بعده جنح الناس إلى مخالطة الدنيا، إختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية.[3]

أما التصوف في معجم الصوفية فيعني: "منتزعاً علمياً وعمليا نزعت إليه الحياة الروحية الإسلامية نشأتها الأولى في صرد الإسلام فالتصوف إذن مرآة هاته الحياة الروحية الإسلامية التي يخضع فيها الإنسان نفسه للألوان من رياضة النفس، ومهاجرتها، وبعد قلبه لمعرفة الحقائق عن طريق لكشف والمشاهدة التي تقوم أولاً على ما اقتدى فيه المسلمون الأولون لنبي صلى الله عليه وسلم من زهد ونسك وتقوى.[4]

وكما يبرز إشكال حد التصوف بشكل جلي من خلال بعض التعاريف التي حد بها الصوفية جنس من معرفتهم هذا عندما سئلوا، عن ماهية التصوف؟ سئل الجنيد –سيد الطائفة– عن التصوف فقال "هو أن تكون مع الله بلا علاقة" سئل سمنون[5] عن التصوف فقال: "ألا تملك شيئًا ولا يملكك شيء"، والأمر الذي يريد سمنون توضيحه من خلال قوله هو أن العلاقة ما بين المالك والملوك علاقة تبادلية، فالمالك للشيء مملوكًا له، وقال فهو مملوك في الوقت نفسه، مالك لقلب

---

[1] أبو حسن النوري، أحمد بن محمد البرادي (أبو حسن النووي) ولد في بغداد، توفي النوري عام 295 هـ/ 970م، وكان يجمع بين الجهاد والعبادة، حارب الظلم، فكان يهاجم المشكر.

[2] أبو القاسم بن محمد بن الجنيد الخزار القواريري النهاوندي، لقب بـ "سيد الطائفة" و"شيخ المشائخ" "طاووس الفقراء" ويعد أكثر الصوفية اعتدالاً وأقربهم إلى السنة.

[3] عبد الرحمان (ابن خلدون): المقدمة، دار الفكر، لبنان ط1، 2004، ص 504.

[4] ممدوح الزوبي، معجم الصوفية، دار الجيل، لبنان ط1، 2004م، ص 84.

[5] سمنون بن حمزة بصري الأصل سكن بغداد كان يقال له سمنون المحب، لكنه سمى نفسه سمنون الكذاب، توفي ببغداد عام 290هـ/ 903م.

صاحبه ويده، فإن تملك شيئًا ولا يملكك شيء هذا يعني التحقق بمقام العبودية الخاصة، إذ تحررت من رق الأكوان وأصبحت عبوديتك خالصة لله وحده.[1]

وجاء في مقدمة ابن خلدون "هو ذلك العلم من العلوم لشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة، وكبارها من الصحابة التابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والإنقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والإنفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة وكان ذلك عامًا في الصحابة والسلف.[2]

هذه جملة من التعريفات، وكل واحد منها يتكئ في معناه على أحد المقامات والأحوال بل إن كثير منها ينفتح بعضها على بعض من دون أن يكون بينها إختلاف كبير، كما أن المسؤول الوحيد عن تعريف التصوف أو الصوفي قد يجيب بغير معنى، انطلاقًا من المقال أو الحال الذي يكون غالبًا عليه أثناء الإجابة أو مراعاة لحال السائل، لذلك اختلفت العبارة والمعنى المشار إليه.

كما قال الشاعر:[3]

عباراتنا شتى وحُسْنُك واحد وكل إلى ذلك الجمال يشير

[1] أمين يوسف تأويل الشعر وفلسفة عند الصوفية، 2008، ص 85.
[2] ابن خلدون، المقدمة، ص 449.
[3] المرجع نفسه، ص 14.

ثانيا: نبذة عن حياة الأمير عبد القادر:

هو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن مختار الإدريسي الحسني، الملقب "بناصر الدين" بن عبد القادر بن أحمد المشهور بابن خدة، بن محمد بن عبد القوي، بن علي، بن أحمد، بن عبد القوي، بن خالد، بن يوسف، بن بشار، بن محمد، بن مسعود، بن طاووس، بن يعقوب، بن عبد القوي، بن أحمد، بن محمد، بن إدريس الأصغر، بن إدريس الأكبر، بن عبد الله المحض، بن الحسنا لمثنى، بن الحسن البسط، بن علي، بن أبي طالب، وأم الحسن فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وعظم .

وتوجد بتحفة الزائر للأمير عبد القادر قصيدة طويلة ذكر فيها ناظمها عن هذا النسب الشريف وهو السيد محمود الحمزاوي، يقول في مطلعها:

يا حبذا الوعد والإنجاز وصحبه حشا علاكم بأن الخلف يعقبه

حيًا، فأحيا ظنونًـــا غير نائية لولاه كانت قضت مما تراقبه

وقد كان عبد القادر يكنى بأبي محمد، أما ألقابه فهي متعددة أطلقت عليه في المناسبات المختلفة منها، أمير المؤمنين، ناصر الدين، الأمير الجزائري ابن الراشدي، ابن خلاد.[1]

ولد الأمير عبد القادر يوم الجمعة الموافق للثالث والعشرين من رجب إثنين وعشرين ومائتين وألف للهجرة 1222هـــ الموافق لشهر مايو أيار سنة سبعة وثمان مئة ألف ميلاد 1807م بقرية القطنية غربي مدينة معسكر من إيالة وهران وتسمى بالقيطنة بالقطر الجزائري، وبها نشأ وترعرع، وثقف العلوم ليرتع من مناهل الثقافة والأدب.[2]

[1] عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، الكويت، 2000، ص 12.

[2] المرجع نفسه، ص 13.

نشأ الأمير وتربى في محيط ديني علمي ثقافي، وكان موضع اهتمام وعناية كبيرة من طرف والده الذي مال إليه ميلاً خاصًا، فأحاطه برأفته وحنانه المميزين للأنه كان يتوسم فيه المجد، ويحس أنه سيكون لهذا الفتى شأناً عظيمًا، فحاول أن ينشئه نشأة تؤهله لتحمل مسؤولية قيادة الأسرة بعد وفاته، "فكان لا يسمح لأحد غيره أن يقوم بالعناية به، فقد كان هناك على ما يبدو سر غامض وعاطفة غير محددة، يدفعان الأب إلى أن يخصص إهتماماً غير عادي للطفل الذي سيكون مستقبله محفوفًا بهالة مجيدة ومرتبطًا بمستقبل بلاده.

وما أن بلغ عبد القادر الثانية عشرة من عمره، حتى أصبح في عداد حفظه القرآن الكريم، متمكنًا من الحديث وأصول الشريعة، وبعدها بسنتين أصبح في مقدور الشاب عبد القادر أن يلقي دروسًا في الجامع التابع لأسرته في مختلف المواد الفقهية.

وإدراكا من محي الدين بأن العقل السليم في الجسم السليم، راح يشجع ابنه على الفروسية، وركوب الخيل، والمشاركة في المسابقات التي تقام آنذاك، فأظهر تفوقًا مدهشًا، فقد كان يلمس كتف فرسه بصدره، ويضع أحد يديه على ظهر الفرس ثم يقفز إلى الجانب الآخر.[1]

وكانت هواية الأمير المحببة إلى نفسه كثيرًا، رياضة الصيد التي كان يمارسها برغبة وحب شديدين، بحيث كان كلما إنتهى من واجباته العلمية والدينية يأخذ معه خادمين أو ثلاثة، ثم يقصد الغابات والبراري، رحلات الصيد مظهرًا استعراضيًا، حيث يتقدمون مع حاشية كبيرة من الخدم والصقور والكلاب، وإثر عودته من رحلته كان يؤوب إلى دروسه وقد تجدد نشاطه وأصبحت نفسه مستعدة أكثر من ذي قبل للتحصيل والإستيعاب، وذلك أن مثل هذه الأمور لم تكن تشغله عن القيام بواجباته الأساسية العلمية والدينية.

ومن هذا السن بدأت ملكة الشعر تظهر لدى الأمير عبد القادر للعيان، حيث بدأ يقرض الشعر ولما بلغ العشرين من عمره، وعلى الرغم من أنه لم يسبق له تعلم موازيين الشعر ومقاييسه

[1] محمد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، الكويت، 2000، ص 13.

ولا سبق له أن تلقى أصوله ومبادئه على أستاذ خبير في فن الشعر وأصوله فجمع بذلك بين رتبتين، السيف والقلم، مما زاد إياه إعجابًا وفخرًا به، فكان لا يقدم على عمل دون استشارته، ولا يحضر مناسبة اجتماعية أو سياسية إلا برفقته.[1]

"وكان الأمير عبد القادر خلال مرضه الأخير منشغلاً بالذكر، حيث أنه مع كثرة ما يقاسي من الألم، ويعانيه من الأوجاع لم يُظهر ضجرًا ولا تأوه قط، ولا ترك الصلاة في وقت من الأوقات، وفي آخر مرضه.... كان قليل الكلام إلا فيما يخص مرضه، فقد أصيب بمرض الكلى والمثانة واستمر تردد الأطباء طيلة خمسة وعشرين يومًا إلى أن توفي في الساعة السابعة من ليلة السبت التاسع عشر من رجب سنة 1300 هـ الموافق للرابع والعشرين من أيار سنة 1883م، وذلك في قصره في قرية دمر بضاحية دمشق عن ستة وسبعين عامًا، ونقل صباح اليوم التالي في عربته من قصره إلى داره في دمشق حيث تولى غسله وتكفينه الشيخ عبد الرحمن عليش أحد علماء الأزهر، ثم حمل نعشه على أكتاف الرجال إلى الجامع الأموي الكبير حيث صلى عليه وكانت الآراء مجتمعة على دفنه بجوار القطب الرباني الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي فاجتمع مجلس إدارة الولاية للمذاكرة في هذا الرأي، ووافق عليه بعد ترخيص من الباب العالي وقد سارت جنازته على طريق الصالحية حتى بلغت دار الحكومة حيث استقبل النعش هناك قناصل الدولة بالألبسة الرسمية مع فريق العساكر السلطانية وجمع أمراء العسكرية والملكية، ولم يزالوا سائرين بجنازته إلى أن وصلوا إلى الصالحية، فدفن إلى جوار محي الدين ابن عربي داخل القبة، انتخب أهله من بين مئات برقيات التعزية والرسائل أربعة أبيات لشيخ دمشق وكبير علمائها عبد المجيد الخاني، فنقشت على شاهد في نتاج الأمير وهو كما نرى كلام موزون مقفى".[2]

لله أفق صار مشرق دارتـــي قمرين هلا من ديـــار المغرب

[1] ينظر عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، 2000، ص 15.

[2] ينظر فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفًا وشاعرًا، ص 80- 82.

الشيخ محي الدين ختم الأولياء قمر الفتوحات الفريـــد المشـــرب

والفرد عبد القادر الحسني الأمير قمر المواقف ذا الولي ابن النبي

من نـــال مع أعلى رفيق أرخـــوا أزكى مقامات الشهود الأقرب

وقد رثاه كثير من العلماء والشهداء والأدباء، فعددوا مأثره الكريمة وفضائله الإنسانية النبيلة بكثير من الأسى واللوعة.

وفي عام 1966 تم نقل رفات الأمير عبد القادر إلى الجزائر أثناء احتفال شعبي ورسمي وهو في الواقع ليس رُفاتًا بل تراثًا من دمشق إلى مدينة الجزائر البيضاء بعد أن أصبحت دار السلام يرفرف في سمائه راية الإستقلال لتواري في التراب الذي روته دماء جروحه.

وسار الموكب الرهيب في شوارع دمشق وراء النعش الملفوف بالعلم الجزائري على عربة مدفع تتقدمها فرقة موسيقى الجيش وفرقة رمزية من الجيش السوري تمثل جميع أسلحته في المطار، وعندما هبطت الطائرة التي نقلت رفاته في مطار الجزائري، كان الملايين من الشعب بإنتظاره وعند سلم الطائرة وقف رئيس الجمهورية هواري بومدين وكافة الوزراء وأعضاء جبهة التحرير، وما أن أطل جثمان الأمير الملفوف بالعلم الجزائري حتى امتدت أيادي رئيس الجمهورية والوزراء لتحمله وفي تلك اللحظات علت أصوات عشرات الآلاف من الرجال (الله أكبر) تشق عنان السماء، كانت ترافق الهتفات زغاريد النساء، كما كانت دموع الفرح تملأ ماتي الجميع وتسيل مدرارًا، وقد نظم الشاعر الكبير محمد الأخضر السائحي قصيدة عصماء حيا بها دمشق الفيحاء بقوله:[1]

يا دمشق الفيحاء ألف تحيـــة قد عرفناك في الندى أمويـــة

أي بشرى حملتهـــا لبلادي برفات الأميـــر، أي هدية

[1] الأميرة بديعة الحسني الجزائري، الأمير عبد القادر، حقائق ووثائق بين الحقيقة والتحريف، ط.خ وزارة المجاهدين، دار المعرفة 2008، الجزائر، ص 353.

وهو من قد سعى إليك اشتياقًا سيحث الخطى ليلقى الحمية

إنما قد رعيت حـــــق إخاء عربي، يا أختنا العربية

فاته أن يعود للدار حيا ويرى الدار في الكرامة حيـــة

ثالثا: مفهوم التصوف عند الأمير عبد القادر :

لقد كان للأمير عبد القادر في التصوف باع طويل، ما كان يكتفي، حتى يمارس عملًا و لم يحن شوقًا حتى يعرفه ذوقًا والتصوف عنده ظاهرة باطنية أي طهارة القلب والنفس والضمير، وهو طهارة ظاهرية، أي طهارة اليد واللسان والجوارح ثم رحمة عالية بكل ذي كيد حي وكل شيء في الوجود تسري فيه الحياة على عقيدة الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله وإن الإنسان أخوا الإنسان أحب أم كره ثم هو التأمل في كتاب الكون ليرتفع الناس فوق الحياة، ويتوجهوا إلى ربهم من محراب لظهر ليفيض عليهم النور المشرق.

ويعتبر الأمير عبد القادر التصوف "جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية والإطمئنان، والإذعان لأحكام الربوبية لا لشيء آخر من غير سبيل الله"[1]، ويوجه الأمير تحذيره إلى الصوفي الذي "يجاهد نفسه بالرياضات الشاقة لأجل طلب جاه عند الملوك أو الصرف وجوه العامة إليه، أو حصول غني، أو نحو ذلك من الحظوظ النفسية.[2]

ويحذر الأمير مرة ثانية من اللذين تكون عبادتهم مشوبه بأغراض نفسه وحظوظ شهوانية.[3]

والصوفيون في نظر أميرهم هؤلاء الذين عليهم، أن يكونوا في جميع أحوالهم وتصرفاتهم حاضرين مع الله تعالى.[1]

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، الموافق في التصوف والوحظ والإرشاد، منشورات، دار النهضة العربية، دمشق، سوريا، ط1، ص 141.

[2] المصدر نفسه، ص 35.

[3] الأمير عبد القادر الجزائري المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ص 40.

إذا أطلق الأمير على الصوفيين ألقابًا عديدة فهم تارة "أهل الله" وطورًا العارفون[2] ومرة أهل الكشف والعرض".[3]

ويحاول الأمير من خلال تعريفه لأهل الله أن يصحح بعض المفاهيم الخاطئة التي كانت ترسخ في أذهان الناس في عصره عن التصوف والمتصوفين، فأهل الله الذين يعنيهم الأمير بحديثه ليسوا هؤلاء الذين يأكلون النار ويُدخلون مسامير الحديد في أشداقهم ويدخلون التنور ويمشون راكبين على ظهر الأشخاص ليعرفهم العوام، لأن ما يصدر عن هؤلاء منه ما هو شعوذة ومنه ما هو سيمياء، ومنه ما هو خواص نفسية يتوارثونها بينهم.[4]

ويخلص الأمير برأيه إلى اعتبار "الصوفية هم سادات طوائف المسلمين[5]، هذا هو التصوف عند الأمير إنه جهاد النفس في سبيل معرفة الله عن طريق الرياضات الشاقة والعبادة الخالصة لله والحضور الدائم مع الله.[6]

وقد تبين لنا أن الأمير لم يبد إهتمامًا كبيرًا في تعريف التصوف لأنه يهتم بالتصوف العلمي التطبيقي.

وقد بدت النزعة الصوفية في جلبه منقلته في نتاج الأمير لاسيما الشعر وتناول فيها العلم والحكمة والتجربة الصحيحة إلى الحد الذي جعلته متصوفًا، وهذا يتبين من خلال الدوافع التي ستبين أثر هذه النزعة.[7]

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ص 41.
[2] المرجع نفسه، ص 302.
[3] المرجع نفسه، ص 203.
[4] المرجع نفسه، ص 673.
[5] المرجع نفسه، ص 468.
[6] فؤاد صالح السيد الأمير عبد القادر شاعرًا ومتصوفًا، ص 115.
[7] المرجع نفسه، ص 116.

وهذا ما نلمسه في قوله في الموقف التاسع والستين، قال تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.[1] ففي الآية الحث على المجاهدة والرياضة وإنفاق المال والنفس والمراد من المجاهدة هنا الجهاد الأكبر الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام لأصحابه الكرام " رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"، أي إبذلوا جهدكم وطاقتكم وما زاد على حاجتكم من أموالكم في وجوه البر وأنواع الخيرات، لأن المالك إذا كان له مال زائد على ضروراته يتعين عليه إخراجه في وجوهه، ولا تعنيه مجاهدة نفسه بغير إخراج المال الزائد في أنواع المجاهدات والرياضات، قيل لذي النون رضي الله عنه "إن فلانًا له مال كثير ولا يُخرج منه شيئًا في وجوه البر وهو يصوم النهار ويقوم الليل "فقال مسكين ترك حاله ودخل حال غيره.[2]

ويعتبر التصوف عند الأمير عبد القادر أيضًا حالة نفسية تسلك لتصفية القلب من الكدر وبلوغ معالم الحق الأزلي، فقد يشعر الصوفي بحالة نفسية في معزل عن الناس، وقد اشتهرت هذه الرياضات في معابد أهل الكتاب، وقد صور الشيخ محي الدين بن عربي أحاديث كثيرة عن المعابد وأهل التصوف وقد اعترف عبد القادر الصوفية وهو يطلع على مؤلفات محي الدين ابن عربي ورسالة أبي زيد القيرواني وإحياء علوم الدين للغزالي، منذ صغره يقول الأمير عبد القادر "كنت مغرمًا بمطالعة كتب القوم المتصوفة رضي الله عنهم منذ الصبا"، ويقول أيضا كانت أقوالهم فعلًا تثير العواطف الداخلية الإنسانية خصوصًا فيما يعلق بحب الله، وكنت في أثناء المطالعة أكثر علت كلمات من سادة القوم وأكابرهم يقف لها شعوري وتنقبض منها نفسي...".

فقد كان الأمير عبد القادر ذا نزعة صوفية رائدة كثيرة الإيمان بأقوالهم وهو القائل "مع إيمان بكلامهم على مرادهم لأنني على يقين من آدابهم الكاملة وأخلاقهم الفاضلة، وقد تناول الأمير عبد القادر معهم رغم تباعد صور الفكر الصوفي بنوع من العقلانية المشفوعة بحب الله تعالى، كما

[1] سورة الحجرات الأية 15.

[2] الأمير عبد القادر، المواقف، ج1 دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع ج1، ص 124- 125.

ناقش إشكالية التصوف أيضا من زاوية التفكير فيها على أساس المعيار الحسي الذي يعطي النفس حقها من السؤال والعقل إلا رادعًا إذا خالف أسسه التي ميزها الشرع.[1]

وقد دفعت الأمير إلى علم التصوف عدة أسباب، ولمعرفتها يجب الرجوع قليلًا إلى الوراء لنتبع حياته خطوة خطوة، حتى يتسنى لنا الوقوف على أهم الأسباب والدوافع التي حملته على سلوك هذا الطريق الصعب الجليل ولا يأتي هذا إلا بالعلم والعبادة المجاهدة ذلك أن التصوف ارتبط بحياة الأمير ارتباطًا شديدًا حتى يخال للمرء وهو يتصفح حياته أنه خُلق ليكون صوفيًا وما الإمارة والسلطات إلا محطة عارضة في حياته ومن بين هذه الأسباب والدوافع ما يلي:

أ- تربيته الدينية:

شب الأمير عبد القادر في جو تربوي ديني، فهو ابن الزوايا والطرق، فقد نشأ نشأته الأولى في مدرسة الزاوية التي كان والده أنشأها، وتلقى مبادئ العلوم الدينية والفقهية فيها، كان طموحه الأكبر في شبابه أن يصبح مرابطًا مثل والده الذي كان يحبه، ويتحمس له تحمسًا بلغ حد العبادة،[2] و لم يخطر بباله قط بأنه سيتحمل ثقل أمانة الإمارة والقيادة الشعب فالظروف والأحداث هما اللتان أجبرتاه على ذلك، وإن دوره الحقيقي لم يكن إقامة دولة، بل العبادة والتجرد والبعد عن هذا العالم[3] "ولنستمع إليه وهو يقرر هذه الحقيقة الثابتة في إحدى رسائله لأحد الأساقفة الفرنسيين بقوله: "لعلك قد اكتشفت من خلال حديثنا أنني لم أولد لأكون محاربًا ولو يومًا واحدًا، ويبدوا لي أنه كان يجب علي أن أكون محاربًا ولو يومًا واحدًا، ومع ذلك فقد حملت السلاح طيلة حياتي،

[1] محمد السيد محمد علي الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه، الجزائر، 1986، ص 52.
[2] فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرًا ص 120، 121.
[3] أبو القاسم سعر الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ج4، دار البصائر، ط خ، الجزائر 2007، ص 15.

وما أكثر غموض مغيبات القدر، و لم يكن سوى محض الصدفة أن وجدت نفسي بعيدًا عن الدور الذي حدده لي ميلاي وتربيتي وميولي.[1]

ب- انتماؤه إلى آل البيت النبوي:

وهو النسب العفوي الطبيعي الذي لا إرادة للأمير به وقد تمسك مؤرخوه بهذا النسب الجسدي فأطنبوا وأفاظوا في ذكر نسبه النبوي الشريف، فتارة عندهم الحسن وتارة الحسيني، وكما كان لنسبه الشريف أثر كبير في سلوك الأمير بسيل التصوف، وقد افتخر به في قصائده الفخرية المماسية، إلا أنه لم يكشف بهذا النسب وحده، فسعى إلى الجمع بين السن النبوي والإلهي، حيث يقول "إذا كانت عنايته تعالى بأهل البيت النبوي كما أخبر، فما ظنك بعنايته تعالى بأهل البيت الإلهي وهم المعنيون"[2]، وموقفه من أهل البيت يتضح لنا من خلال شرحه الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3].

قال في المواقف "تأمل هذه العناية الكبرى والمتقية العظمى، والمنزلة الزلفى لأهل البيت النبوي، ولفظه أهل تعمهم من أولهم إلى آخرهم، حصر تعالى إرادته بأنها لإذهاب الرجس عنهم، وتطهيرهم من الرجس، وهو الذنب، تطهيرًا كاملًا بالمصدر، وذلك بأن يكون كل ما يصدر منهم من المعاصي والمخالفات مغفورة لهم، بل المغفرة متقدمة، لا بأنهم معصومون من المخالفات ولأنه تعالى أباح لهم ما حرمه على غيرهم من الأمة لا وحاشى بل معنى أن ذنوبهم تقع مغفورة لهم عناية إلهية.[4]

---

[1] شارل هنري تشرشل حياة الأمير عبد القادر، ص 258.

[2] فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوفًا وشاعرًا، ص 258.

[3] سورة الأحزاب الآية 33.

[4] الأمير عبد القادر، المواقف، ص 825.

ج- عزلته في منفاه بأمبواز:

تعتبر هذه العزلة من أسباب تصوف الأمير، بسبب كونها محطة هامة من أهم المحطات التاريخية في تصوفه، إذ لما ضاقت عليه الأجواء وتبدل حاله إزاء العزلة يشغل نفسه بالدعاء والتضرع، حيث ترد عليه الواردات في الوقائع مشيرة وأمره بالصيد.[1]

د- نزعته الإنسانية:

وهي السبب الإرادي الحقيقي الذي آراده الأمير أن يكون صلة الوصل بينه وبين أخيه الإنسان شرقيًا كان أم غربيًا أو أوروبيًا أو مسلمًا أو مسيحيًا، إذ أن أساس الديانة وأصولها خلاف فيها بين الأنبياء، من آدم إلى محمد عليه الصلاة والسلام فكلهم يدعون الخلق إلى: توحيد الله وتعظيمه.[2]

وإن المتأمل في التسامح الديني الذي عرف به الأمير في أثناء وجوده في الجزائر وخارجها منفيًا، يدرك أن الرجل كان على مستوى من الوعي الإنساني المتفهم لحقيقة الإنسان والإنسانية التي لا تؤمن بالحدود والحواجز والعراقيل بين البشر.[3]

قال حينما بدأت مقاومتي للفرنسيين كنت أظن أنهم شعب لا دين له، ولكن تبينت غلطتي، وعلى أي حال فإن مثل هذه الكنائس ستقنعني بخطئي.[4]

---

[1] فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوفًا وشاعرًا، ص 125.

[2] عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق وتقديم ممدوح حقي مكتبة الخانجي للطباعة والنشر القاهرة، ط1، 1972، ص 101.

[3] فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوفًا وشاعرًا، ص 117.

[4] المرجع نفسه، ص 117.

هـــ- تركه الحياة السياسية والعسكرية بعد استلامه:

إن المرحلة الثانية من مراحل حياة الأمير عبد القادر وهي مرحلة جهاده التي امتدت من عام 1246 إلى عام 1264هـــ/ 1830 إلى 1847م وقد إنحصر تفكيره في الأمور السياسية والعسكرية ولا يتخطاها إلا في القليل النادر، ولكن دخوله في معترك الحياة السياسية والعسكرية، كان مفيدًا جدًا فقد أوجد له بديلًا من فقدان نشاطه الأدبي والعلمي، في فتوته ومرابطته، وهما حركتان من أشد الحركات ارتباطًا بالتصوف، وبإنتهاء من هذه المرحلة السياسية والعسكرية، تبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة التصوف والعبادة والتجرد من متاع الدنيا الفانية.[1]

و- إيمانه الشديد بالقضاء والقدر: إن إيمان الأمير بالقضاء والقدر شديد جدًا، ولعله يتابع في هذا الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين سئل عن الإسلام فقال، "..... أن تؤمن بالأقدار كلها خيرها وشرها، حلوها ومرها".

فالأمير يولد ليكون محاربًا، و لم تكن فكرة الإنسان المحارب تخطر على باله مطلقًا، ومع ذلك فقد حمل السلاح، ولذا اعتبر مرحلة الجهاد الحربي في حياته، قد أبعدته كليًا عن الدور الذي حدده ميلاده وتربيته وميوله. وكشف الأمير عن حقيقة هذا الدور إثر عودته من الحجاز، بعد خلوته الصوفية الشهيرة فقال: لقد خط لي بالميلاد والتربية والميل، أنه دور طالما أشربت نفسي لاستئنافه، وطالما صليت إلى الله أن يسمح لي بالعودة إليه، الآن وقد قاربت سنوات عمري الشاقية نهايتها".[2]

إذا لم يعد هناك من شك في هذا الدور، الذي يؤمن به الأمير إيمانًا كليًا والذي حققته في خلوته الصوفية، هو إيمانه بأن القضاء والقدر قد كتب له ليكون صوفيًا بالميلاد والتربية والميل.

---

[1] فؤاد صالح السيد الأمير عبد القادر متصوفًا وشاعرًا، ص 124، 125.

[2] شال هنري تشرشل "حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم عبد الله.

الفصل الثاني

المعاني الصوفية في الديوان

1/ رحلة الأمير الصوفية:

إنّ المطلع على ديوان الأمير عبد القادر تتجلى له حقيقة التصوف عند الأمير فضيه عبّر عن تصوفه بأسمى معانيه، وكان الأقدر على وصف خلواته الصوفية فهو الذي عايشها وانتقى أروع الكلمات وأبلغ التعابير وأشدها وفقا على النفس إذ يقول:[1]

أمطنا الحجاب فامنحى غيهب السوى وزال أنا وأنت وهـــو، فلا لبس

تجمـــعت الأضـــــداد فـــياو إننـــي أنا الواحد الكثير، والنوع والجنس

وقد تضمن ديوان الأمير مجموعة من القصائد في مختلف الأغراض وفي باب التصوف نجد الأمير عبد القادر قد ذكر عدة قصائد في منتهى القمة والروعة ففيها من المعاني ما يدل على أن الأمير عاش تجربته الروحية الذوقية التي وصل إليها نتيجة علم المكاشفة*، وقد وصف الأمير عبد القادر البدايات الأولى لتصوفه في أبيات في قصيدته: "أستاذي الصوفي"[2] أتاني، مربي العارفين، بنفسه ولا عجب، فالشأن، أضحى له أمر وقال:

وقال فإننـــي منذ أعـــــــداد حجـــة لمنتظر لقيـــاك، أيـــا أيها البـــدر!

فأنت بُنيَّ، مُذ «ألست بربكم» وذا الوقت، حقًا، ضمّه اللوح والسطر

ففي هذه الأبيات بين لنا الشاعر كيف بدأ التصوف عنده، حيث أتاه الرسول وسقاه من حوضه الصوفي ويقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنه منتظر لقياه بقوله "منتظر لقياك يا يها البدر".

---

[1] ديوان الأمير عبد القادر د/ زكرياء صيام، ص 215، 216، ديوان المطبوعات الجامعية.

* المكاشفة: هي رتبة من رتب المجاهدة (مباشرة ← (الديوان)، ص 185.

[2] ديوان الأمير عبد القادر، تحقيق، ممدوح حقي، ط2، 1964، ص 185.

فقال له النبي "صلى الله عليه وسلم" "أنت بني" يقصد هنا أنك من آل البيت وفي هذا البيت تبدو النظرية وحدة الوجود بارزة، وكان الشيخ الصوفي ومريده الأمير الشاعر يؤمنان بها كسائر الصوفية في القرون الوسطى ويذكر أبيات من نفس القصيدة:[1]

فقبـــت، مـــن أقدامه، وبساطه وقال لك البشرى بذا، قضى الأمر

وألقى على صفري، بأكسير سره فقيل له: هذا، هو لـــذهب التبـــر

في البيت الأول لا نستغرب تذلل الأمير لشيخه حتى قبل قدميه وبساطه، فالصوفي المريد يعتقد بأنه صفر أمام أستاذه الشيخ في عالم الحقيقة، وهنا يشر الشاعر بالولاء.

أما البيت الثاني: يعني بكلمة صفري أي نحاسي وإكسير تعني روح المادة يعتقدون بأنها إذا ما زجت النحاسي، إنقلب إلى ذهب إبريز.

والذهب من كنوز الدنيا وكذلك نجده يقول:[2]

ومحي رفاتي، بعد أن كنت رمة وأكسبني عزا، لعمري، هو العمر وهنا يعني بكلمة محي رفاتي يعني بها تجديد الذكر، وبلوغ درجة الصوفية، إذ اعتبر الأمير الشعر أنه كان ميتًا، وبروح التصوف اكتسب عمرًا جديدًا.

اشتهر الشعر الصوفي بنزعة غزلية والخمرية، ولعل المتصوفة قد «اصطنعوا هذا الأسلوب الرمزي لأنهم لم يجدوا طريقا آخر ممكن يترجمون به عن رياضاتهم الصوفية»[3]، فالرمزية الخمرية عند الصوفيين غنية صادقة، فقد عبر الصوفيون عن شوق الروح إلى معرفة الله وحبته بعبارات تكاد

[1] ديون الأمير عبد القلدر تحقيق ممدوح حقي، ط2، دار اليقظة العربية، 1964، ص 186.
[2] المصدر نفسه، ص 187.
[3] نيكلسون، الصوفية في الإسلام، ص 101، نقلا عن كتاب الأمير عبد القادر ج متصوفا وشاعرًا، ص 227.

تكون عبارات المتغزلين من شعراء الغزل والنسيب لدرجة التوهم أن القصيدة الصوفية هي قصيدة خمرية أو غزلية، شأنها شأن قصائد الخمرة والغزل.

2/ الخمرة عند الأمير:

الأمير لم يخصص للخمرة الحيية المادية قصائد ومقطوعات في ديوانه، و لم يذكرها بتاتًا، وإنما يقصد الخمرة الإلهية، حيث يقول فيها الأمير:[1]

ويشرب كأسا صرفة، من مدامة فيا حبذا كأس! ويا حبذا الخمر!

يبدأ الشاعر بذكر الكأس، والخمرة، والمدامة، وهي الفاظ يستعملها شعراء الصوفية كرمز للمعرفة الإلهية، ويطلقون عليها اسم الخمريات أو الخمرة، ليست الخمرة التي يتغنى بها أبي نواس وغيره من الشعراء، فأبو نواس يصف الخمرة قائلًا:[2]

ألا فسقني خمرًا، وقل لي: هي الخمـــرة، ولا تسقني، سرا إذا أمـــكن الجهـــر

فيح باسم من تهوى، ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر

وتنقسم الخمرة عند الأمير إلى قسمين:

أ/ **الخمرة التي لا تسكر**: يقول الأمير في هذا النوع من الخمرة:[3]

فلا غول فيها، لا، ولا عنها نزفة وليس لها بردُ، وليس لها حرُّ

وهنا نجد الشاعر يستمد هذا القول من الآية الكريمة

---

[1] ديوان الأمير، تحقيق ممدوح حقي، ص 193.

[2] أبي نواس، الديوان شرحه وطبعه الأستاذ علي فاعور، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، 2002، ص 201.

[3] ديوان الأمير، ممدوح حقي، ص 194.

قال تعالى :

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا (34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (35) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (36)﴾[1]

فالخمرة هنا كخمرة الجنة التي نفى القرآن عنها الإسكار، فليس لها صفات الخمرة الدنيوية وهي خمرة لا تسكر، فلا يصاب شاربها بالسكر، ولا بخفة العقل، وهي نظرة الأمير العلم، وهي الغنيمة الكبرى، لذلك هاجر الأمير إليها وبلغ غايته، وهي خمرة صافية لا يتغير لونها، ولا طعمها إذ يقول الأمير:[2]

ولا هو، بعد المزج، أصفر فاقع ولا هو، قبل المزج، قانٍ ومحمر

ب/ الخمرة المعتقة:

هي خمرة موجودة من قبل كسرى، مصونة عن كل ما يسيء إليها ويدنسها، فما كسبها شخص ولا نالها عصر، ولا نالها تاجر.

لقول الأمير في ذلك:[3]

معتقة، من قبل كسرى مصونة وما ضمّها دنّ ولا نالها عصر

ولا شأنهـــا ذقّ. ولا سار سائر بأجمالها. كلاّ، ولا نالهـــا تجر

3/ أثر الخمر: يظهر تأثير هذه الخمرة التي لو شمَّ ريحها العلماء لفقدوا صوابهم عن الصواب، ولو عرف الملوك قيمتها، لا تخلو عن ملكهم طوعًا ولا كرهًا:[4]

[1] سورة النبأ، الآية 34-36.
[2] ديوان الأمير، ممدوح حقي، ص 194.
[3] المصدر نفسه، ص 194.
[4] ديوان الأمير بتحقيق ممدوح حقي، ص 194.

فلو نظـــر الأملاك. ختم إنائها تخلوا عن الأمـــلاك، طوعًـــا، ولا قهـــر

ولو شمّت الأعلام، ف الدرس. ريحها لما طاش، عن صواب الصواب، لها فكر

3)الخمرة هي العلم:

فالخمرة عند الأمير هي العلم كل العلم، ذلك أن نسبة هذه الخمرة إلى العلم، كنسبة النقطة إلى محيط الدائرة، فهي مركز تدور حوله، وتتكئ عليه كل العلوم، فلا العالم يكون خبيرًا إلا بشربها، ولا يكون الجاهل إلا من تكرها فالغنيمة الكبرى في هذه الحياة أن ينال المرء منها، والغني الكبير في جهلها إذ يقول الأمير:[1]

هي العلم، كل العلم، والمركز، الذي به كل علم، كل حيـــن، لـــه دور

فلا عالم، إلا خبيـــــر بشربهـــــا ولا جاهل، إلا جهول بهـــا، غِـــــرٌ

ولا غبت في الدنيـــا، ولا من رزيئه سوى رجل، عن نيلها، حظـــــه نزر

ولا خسر في الدنيا، ولا هو خـــاسرُ سوى واله، الكفّ، من كأسها صقر

يكاد وصف هاته الخمرة شبيها بوصف ابن الفارض لخمرته التي اعتبرها رمزًا للمعرفة الإلهية أو لمعرفة الحبيب الأزلي، إذ يقول ابن الفارض:[2]

شربنا على ذكر الحبيب، مدامـــة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

فإن ذكرت في الحي أصبح أهله نشاوى، ولا عار عليهـــم، ولا إثـــــم

ولو نظر الندمان ختم إنائهـــــا لأسكرهم من دونهـــــا ذلك الختـــــم

---

[1] ديوان الأمير بتحقيق ممدوح حقي، ص 195.

[2] ابن الفارض، الديوان: شرحه وقدمه له مهدي محمد ناصر الدين، ط1 دار الكتاب، بيروت لبنان، ص 179، 185.

ولو نضحوا منها ترى قبر ميت، لعادت إليه الروح، وانتعش الجســـــم

يقولون لي: "صفـــها فأنت بوصفها خبير" أجل عندي بأوصافها علـــم

صفاء ولا مـــاء، ولطف ولا هـــؤا ونـــور ولا نـــار، وروح ولا جسم

فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحياً ومن لم يمت سكرًا بها، فاته الحزم

شعر صوفي مبني على اصطلاح الصوفية، وهي عندهم شراب المحبة والشوق لله عزوجل، فهو الحبيب والمحبوب والمدامة التي ذكرها ابن الفارض المعرفة الإلهية وقوله «سكرنا بها» أي طربنا وتطرق الأمير لذكر هاته الخمرة في قصيدة صوفية واحدة من قصائده «أستاذي الصوفي» تكاد تكون هاته القصيدة التي ضمنها ذكر الخمرة صورة طبق الأصل لقصيدة ابن الفارض.

4)الهجرة إلى الخمرة:

لن يكتفي الأمير بذكر وتسمية هاته الخمرة، بل بدأ هجرته في سبيل الوصول إليها أين ذاق معاناتها ومجاهداتها وقطع من أجلها مراحل الطريق الروحية، فقد جاهد في سبيل كتم نزواته ورغباته، فهان كل شيء في نظره أدنى درجة من الإهتمام، وما يثبت ذلك لقوله:[1]

وفي شمها حقا بذلنا نفوسنا فهان علينا كل شيء، له قدر

وملنا عن الأوطان، والأهل جملة فلا قاصرات الطرف، تثني، ولا القصر

وفي شمها إذا هبت ريحها، بذلنا نفوسنا فهان كل شيء حتى الأهل والوطن فلا قاصرات أي لا طمع في حوريات الجنة، ولا قصور الدنيا، وقاصرات هي مقتبسة من قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ

[1] ديوان الأمير عبد القادر، ممدوح حقي، ص 197.

﴿الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[1] لم يمنع الأمير في هجرته الروحية في سبيل خمرته الصوفية أي شيء لا أحباب ولا أصحاب، أي أن الشاعر تخلى عن الأصحاب والجمال الجسدي والمادي و لم يصُده عن هذا لا الخوف بحر، فهو مشغول بالذات الإلهية والإخلاص في حب الخالق دون سواه، فالخمرة والجمال ما هي إلا رموز يُضيفها الشعراء الصوفيون في قصائدهم:[2]

ولا عن أصحاب الذوائب من عـــدت ملاعبهم مني: الترائب والنحر

هجرنا لها الأحباب، والصحب كلهم فما عاقنا زيد ولا راقنـــا بكـــر

ولا ردنـــا عنها العوادي. ولا العدا ولا هالنا فقر، ولا راعنـــا بحر

يقول أيضا:[3]

ترى سائقيها، كيف هامت عقولهم ونازلهم بســـــــط وخامرهم سكر!

يحزن، وتلحين، تجاوبتا بمـــا تذوب له الأكباد، والجلمد الصخر

هنا يقصد كيف هامت عقولهم، أي سبحت في ملكوت الله، وأنه ليس لهم ذكر أي لا ذكر ولا فكر إلا بما آتاهم به رسول الله وخمرتهم هي في ذكر الله، ولا يحبون ولا يكرهون إلا في الله، ويزهدهم وتبكيهم ورق الحمائم شوق الحنين في قيام الليل، يعني ذلك التسبيح وذكر الله، ذكرًا تتقطع له الأكباد حُبًا وتذوب القلوب القاسية لسماعه وهذا لقوله:[4]

حياري فلا يدرون أنـــي توجهـــو فليـــس ذكـــر، وليـــس فكـــر

وتبكيهم ورق الحمائم، في الدجى إذا ما يكت، من ليس يدري لها وكر

---

[1] سورة الرحمن الآية 56.

[2] ديوان الأمير، تحقيق ممدوح حقي، ص 197.

[3] المصدر نفسه، ص 195.

[4] المصدر نفسه، ص 196.

نجد الأمير وصل إلى غايته السامية بعد هذه الهجرة الروحية الطويلة، وشرب من تلك الخمرة، عرف من الأسرار ما يعجز الملوك عن معرفته لأن ما يملكه الملوك من الحياة المادية لا يُعد شيئًا بالنظر إلى ما أصبح الأمير يملكه من معرفة الأسرار العلوية والعلوم الإلهية، أي نعمة معرفة الحبيب ويقول الأمير:[1]

وقد أنعم الوهابُ، فضـــلًا، بشربهـــا فلله حمدٌ دائم، وله الشكر

خذ الدنيا والأخرى، أبا غيهما!! معًا وهات لنا كأسًا. فهذا لنا وفر!!

يتجه الأمير إلى الله سبحانه وتعالى راجيًا رضاه، فهو واقف عند بابه، طامع في وجوده وسعة رحمته، فهو العبد، فهو العبد لا الخادم الحر وإذ كانت حصته من رضى ربه قليلة إلا أنه راضي بذلك على أن يكون قريبًا منه ومن معشر مجيبه، وأنه برفقته لربه سبحانه وتعالى صار له كتر ثمين، وفارقه الفقر، وصار ملكًا بعد أن سوقه إذ يقول:[2]

أ مولاي ! إني عبد نعمائك، التـــي بها صار لي كتر وفارقني الفقـــر

وصرت ملكيًا، بعد ما كنت سوقة وساعدني سعـــــد، فحصبـــاؤنـــا، در

أ مولاي ! إني عبد بابك، واقف لفيضك محتاج لجـــــودك مضطر

فمر، أمر مولى للعبيـــد. فإنني أنا العبد، ذاك العبد، لا الخادم الحر

كما يهنيء الأمير معشر الصحب أي من سلكوا طريق التصوف، فلهم الفوز والحصن المتين إذ يقول:[3]

هنيئًا لنا يا معشر الصحب ! إننا لنا حصن أمن، ليس يطرقه ذعر

---

[1] ديوان الأمير، تحقيق ممدوح حقي، ص 197.

[2] المصدر نفسه، ص 198.

[3] المصدر نفسه، ص 199.

فنحن بضوء الشمس، والغير في دجى وأعينهم عمي. وآذانهم وقر

ولا غرو في هذا، وقد قال ربنـــا: تراهم عيون، ينظرون، ولا يصـــر

أي أنهم في النور الباقي في الظلام ومعرضيهم على عيونهم غشاوة وفي آذانهم وقر ويؤكد الأمير أن الشدة مهما طالت لن تدوم، لأن دوام الحال من المحال وأن بعد كل عسر يسر، ويقول في ذلك:[1]

وغيم السما، مهما سما، هان أمره فليس يرى، إلا لمن ساعد، القدر

وفي أبياته الأخيرة في قصيدته، يبدي الشكر لشيخه الذي كان يراه سببا وقدوة اتجاهه لطريق التصوف، ويختم كلامه بالصلاة على النبي "صلى الله عليه وسلم"

ألا، فاعملوا، شكرًا، لمـــن جاديا للذي هدانا ومن نعمائـــه، عمنا اليســـر

وصلو، على خير الورى. خير مرسل وروح هداة الخلـــق، حقًا، وهـــم ذر

عليه صلاة الله، مـــا قـــــال قائل أمسعود ! جاء السعد، والخير، والسير

5/ الغزل الصوفي:

تطرق الأمير إلى موضوع الغزل الإلهي في بعض قصائده الصوفية نذكر منها قصيدته الحائية التي تدعي "ممكنين..... لم يذق طعم الهوى" والتي نسخة لقصيدة السهر، وردي فحرف الحاء نفسه في كلا القصيدتين والمعاني متشابهة بين الشاعرين حتى يظن القارئ أن القصيدتين من نظم شاعر واحد، وتعتبر قصيدة السهر وردي المقتول "الحائية" من القصائد الصوفية إذ يقول:[2]

أبدا تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانهـــا والـــراح

[1] ديوان الأمير، تحقيق ممدوح حقي، ص 199.

[2] سامي الكيالي، نوابغ الفكر العربي السهروردي، دار المعارف بمصر، ص 51، 52.

وارحمتاه لعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح

بالمقابل نجد الأمير قد تحدث في "حائيته"، عن:

أ) وصال الحبيب:

مزج الأمير بين موضوعي الخمر المحبة، واستطاع الأمير أن يصل إلى مجاهداته في مرحلة التحقيق والمشاهدة نعرف وصال الحبيب الأول، هذا الوصال الذي اعتبره الأمير وصل أعياد وأفراح، وهذا اللقاء بالنسبة للأمير بمنزلة الروح، والراح ويقصد بها الخمر إذ يقول:[1]

أوقات وملكم عيـــد وأفـــــراح يا من ! هم الروح لي، والروح والراح

يا من ! إذا اكتحلت عيني بطلعتهم وحققت في محيا الحســـن، ترتـــــاح

عندما يخلو الأمير إلى حبيبته، وقد أديرت الأباريق والأقداح المملؤة من خمر المعرفة الإلهية، فكلما إزداد شربا من هذه الخمرة إزداد معرفة بهذا الحبيب، إزاد محبة له فيقول في ذلك:[2]

أود طول، الليالي، أن خلوك بهم وقد أديرت أباريق، وأقداح

ب/ التوجه الكلي: يبدوا التوجه الكلي في حبه الإلهي هذا حين تخلى عن جميع ندماته من ندمات الأنس ما عدا نديما واحد وهو النديم الذي عنده أخبار الحبيب، ويعمل جاهدًا على نشر هذه الأخبار وإيضاحها فليس للكسب المادي، أو النجارة أو الأرباح قيمة في نظر الأمير، فقد تخلى عن كل هاته الأشياء جميعها، وإنما الكسب الروحي هو الغاية الكبرى والنعمة العظمى:[3]

فما تديمي، بحان الأنس، غير فتـــى له، لأخبارهم، نشر وإيضاح

[1] ديوان الأمير، ممدوح حقي، ص 202.
[2] المصدر نفسه، ص 205.
[3] ديوان الأمير، تحقيق ممدوح حقي، ص 205.

لا كسب لي، بل، ولا شغل ولا عمل ففي حديثهم، تجر، وأربـــاح

ما جنة الخلـــد، إلا في مجالسهـــم فيها ثمار، وأطـــيار، وأرواح

ج/ صبر المحبين:

هنا نجد الأمير يعجب من صبر المحبين على أسرار المحبة الإلهية التي أؤتمنو عليها، تحاولوا، أن يكتموا هذا الهوى وإن كان الهوى فضاح فيقول في صبر المحبين:[1]

لو كنت أعجب من شيء، لأعجبني صبرُ المحبين: ما ناحوا، وقد باحو

أريد كتم الهوى، حينًا فيمنعني تهتكي، كيف لا؟ ! والحب فضاح

لقد ملأ الأمير قلبه معرفة بالله، وهيامًا بمحبته هذه هي المحبة الإلهية التي عرف حلاوة مذاقها ونعمة عطائها فلا يستطيع أن يسلوها، ولا يبتعد عنها، فهي محبة ملكت عليه قلبه فاستعلت فيه آثار الشوق، لمعرفة الحبيب ومحبته له إذ يقول:[2] "أنا الحب والحبوب والحب جملة"

عن الحب مالي، كلما رمت، سلوانا أرى حشو أحشائي، من الشوق، نيرانًا؟ !

لو أعج، لو أن البحـــار جميعها صَبَبْنَ، لكان الحـــرَّ، أضعاف ما كانا

فلو أن ماء الأرض، طرًا شريته لما نالنـــــي ريٌّ، ولازلـــت ضمآنا

[1] ديوان الأمير، تحقيق ممدوح حقي، ص 203.

[2] المصدر نفسه، ص 207، 208.

6/ مقامات الأمير عبد القادر من خلال ديوانه:

1- المقامات:

أولا: الورع: إن الورع أول الزهد، فزهد الأمير وبدايات تصوفه تحدث عنها في قصيدته "أستاذي الصوفي" إذ يقول:[1]

ويشرب كأسًا صرفة، من مدامة فيا حبذا كأس ! ويا حبذا خمر !

هنا بدأ الأمير بالورع والزهد لبلوغ طريق التصوف والقرب من الله سبحانه وتعالى

ثانيا: الصبر والإرادة: تميز الأمير بصبره الشديد على أمور ومسؤوليات أثقلت فهي تجل على أن تعد وتحصى ونتيجة صبره تفرد بإرادته القوية، والعزيمة وهو يفخر بصبره هذا إذ يقول:[2]

ومن عجبٍ، صبري لكل كريهةٍ وحملي أثقالًا، تجلُّ عن العرِّ

ثالثا: الرضا: كان الأمير شديد القناعة وراضي بما قسم الله، كما أنه تخلى عن كل الشهوات الدنيوية ومتاعها، وتفرغ لعبادة الله سبحانه وتعالى واكتفى بحبه لله وقربه منه، إذ يقول "ذو النون المصري" في الرضا «هو سرور القلب بمر القضاء».[3]

ويقول الأمير:[4]

أ مولاي إني عبد بابـــــك واقف لفيضك محتاج لجـــودك مضطر

خمرْ، أمر مولي، للعبيد، فإنني أنا العبد، ذلك العبد، لا الخادم الحرُّ

---

[1] ديوان الأمير عبد القادر، تحقيق ممدوح حقي، ص 193.

[2] المصدر نفسه، ص 64.

[3] اللمع في التصوف، ص 80، نقلا عن كتاب الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرًا، ص 142.

[4] ديوان الأمير، تحقيق ممدوح حقي، ص198.

مقام التوبة لا يتحدر في قصائد الأمير فقط بل منذ صغره كان قد سلك طريق التوبة على يد والده ثم مشائخه لبلوغ أعلى درجات التصوف.

2/ الأحوال:

أ- حال القرب: كما تدانت الديار بين الأمير، وبين المحبوب، زاده هذا القرب همًا وحزنًا، فلا القرب يشفي، ولا البعد يُنسي، وكلما زاد قربًا من الحبيب، زاده هذا القرب عطشا إذ يقول:[1]

وإن فلت يومًا قد تدانـــــت ديارنـــــا لأسلو عنهم، زادني القربُ أشجانًا

فما القرب لي شافٍ، ولا البعد نافع وفي قربنا عشق، وعاني هيمانـــــا

ب- حال المحبة: المحبة التي ملأت قلب الأمير، وأشعلت فيه نيران الشوق وملكت قلبه إذ يقول:[2]

عن الحب، مالي، كلما رمت، سلوانًا أرى حشو أحشائي، من الشوق، نيرانًا؟ !

وفي بعدنا شـــــوق، يقطـــع مهجتـــي كتقطع بين الشعر، للنظم، ميزانًـــا

وفي حال المحبة يقول "ابن عربي" أيضا:[3]

بأن الذي تهواه بين ضلوعكم تقلبه الأنفاس جنبًا على جنب

فقلت له: بلغ إليه بأنه هو الموقد النار التي داخل القلب

في هذه الأبيات دلالة على التقرب لله.

---

[1] ديوان الأمير، تحقيق ممدوح حقي، ص 208.

[2] المصدر نفسه، ص 207، 208.

[3] أروع ما قيل في الزهد والتصوف.

7/ قصيدة الغيب للأمير:

من معتقدات الأمير وخوفه من الله ومن الغيب، ففي قصيدته هاته يتحاور مع نفسه، ويذكرها بيوم القيامة فقال الأمير في شأن الغيب:[1]

أيا نفس إن الأمر غيب، فما تدري بماذا يكون الكشف في آخر العمر

فما بشير باللقاء، وبالرضى على طول عتب بالزيـــادة للـــــزور

وإما يضد، بـــل ولا كان ضـــد ذا تعالى الهي عن عذابي وعن ضرى

وليس تلاف، بـــل ولا رد فائـــت هناك ولا يجـــدي، سوى الجبر للكسر

أليس لهذا الخطى ويحك شاغـــل عن الأهل، والأصحاب، زيد، وعن عمرو

أيا سامع الشكوى ! ويا دافع البلا ! ويا منقذ الغـــرقى ! ويـــا واســـع البرّ !

تجهت لكم وجهي، بأكرم شافـــعٍ محمدٍ البعـــوث، للعبد، والحـــرّ

لترسل لي، عند الوفـــــاة، مبشرًا برضوانك الأوفى ! وفوزي في الحشر

من خلال الأبيات نجد الأمير بذكر نفسه بأمور الغيب، فلا ينفعها إلا توبة والرجوع إلى طريق الصواب، حيث يقول «وليس تلاف» يعني بها لا رد لقضاء الله، كما أنه يؤنب نفسه ويحذرها أن لا تنسى ذكر الله ولا يشغلها عنها لا أهل ولا أصحاب ولا غيرها من مشاغل الدنيا، بينما في البيت التارس نجده يتجه إلى الله، ويشكوا حيرته ويطلب منه النجاة لأنه دافع البلاء، ومنقذ الغرقي، فهو واسع البر والرحمة.

[1] ديوان الأمير، ممدوح حقي، ص 200- 201.

فالأمير تحدث في القصيدة عن وجوب محاسبة النفس وحثها على المجاهدات وذلك بتفكيرها بيوم الحساب والعقاب.

8/ الفناء النفسي عند الأمير:

تظهر قمة التصوف عند الأمير لما انكشف الحجاب بينه وبين الله سبحانه وتعالى حيث يقول:[1]

أمطنا الحجاب: فامنحنا غيهب السوى وزال أنا وأنـــت وهو، فلا لبـــــس

و لم يبقى غيرنـــا، وما كان غيرنـــا أنا الساقي والحسقي والخمر والكأس

تجمعت الأضداد في وأننـــي أنا الواحد الكثير، والنوع والجنـــــــس

هنا إزالة الحجاب وانقشع الضباب، لم يبقى إلا الشاعر مع ربه سبحانه وتعالى، فالشاعر هو الساقي والمسقي والخمر والكأس أي هو المربي والمتربي وهذا هو الفناء النفسي عند الصوفيين كما قال تجمعت الأضداد حيث يقول:[2]

فيا نور بلا شمس ويا شمس بلا نور

ويا بحر بلا حـــد وساحلًا بلا بحـــر

أو يدعوا إلى مفارقه شهوات النفس ونزواتها، ليصل إلى ما يريد ويظفر بالمنى ومفارقة النفس الأمارة بالسوء ومزايلة الإيمان العقلي، إذ يزيل الشاعر الحب من العقل إلى القلب لأن العقل يتردد في أحكامه التي يدركها القلب فيقول:[3]

---

[1] ديوان الأمير، تحقيق/ زكرياء صيام، ص 215- 216.

[2] المصدر نفسه، ص 209.

[3] المصدر نفسه، ص 216.

ففارق وجود النفس، تظفر بالمنى وزايل ضلال العقل، إذ أنه الحبس

لقد نظم الأمير مقطوعة تدعى "الباطن والظاهر" في حال غيبوبة صوفية فجاءت مختلفة الوزن والقافية وقد صورها الشاعر في حال شطحاته الصوفية وغيبوبته عن الوجود إلى اللاوجود فيقول:[1]

أردد طرفي، في الرسوم، فلا أرى سوى، من به كانت: رسومًا وآثارًا

وأسا لهـــا عنه، فكل أجابنـــي بأنه مـــرآة يومًـــــــــا، ولا أدرى

عرفته منكم، ثم زاد فـــي عرفاننـــا بأننـــــي إيـــــاه، ولكن منكـــرًا

عجبت له، كيف اختفى بظهوره؟ ! فعيني مجابـــه الظهـــــــور، ولا أنفرا

ألا فاعجبوا، من ظاهر في بطونه ومن باطن، لا زال بـــايو ظاهـــــرا

فالأمير هنا يرى كل ما يراه الصوفي، فالمتصوفة لا تكمل معرفتهم بالعلم بوحدانية الله فقط، بل بمعرفة صفات وحدانيته، فلقد أبصر الشاعر ربه من خلال رسومه وآثاره وأحب خالقه ومخلوقاته، فالحب الصوفي لا يقتصر على الله وحده بل تعداه إلى جميع مخلوقاته على أن صفات الله تتجلى فيها، فكل شيء من مظاهر الجمال الإلهي هو موضوع عشق ومحبة فحب الله سبحانه وتعالى ينتهي بالصوفي وإلى التأمل والمشاهد والفناء فيه، لا يميل إلى المظاهر الكونية إلا بمقدار ما يتجلى فيها المعشوق الإلهي.

[1] ديوان الأمير، تحقيق ممدوح حقي، ص 212- 213.

9/ وحدة الوجود:

تتضح نظرية وحدة الوجود في أوضح صورة في قصيدة للأمير بعنوان "وحدة الوجود" إذ يقول:[1]

أنا حقٌّ، أنا خلق أنا ربٌّ، أنا عبدُ

أنا عرشٌ، أنا فـــــرش وجحيم، أنا خلـــدُ

أنا مـــاءٌ، أنا نـــــارُ وهواء، أنا صلـــــدُ

أنا كـــمٌّ، أنـــا كيـــف أنا وجدُ، أنا فقد

أنا ذاكُ، أنا واصـــفُ أنا قُربُ، أنا بُعـــــدٌ

كل كونٍ، ذاك كوني أنا وحدي، أنا فرد

هذه القصيدة تتحلى بحق نظرة الأمير الصوفية في وحدة الوجود حيث نجده يعتبر نفسه جزاءٌ من الذات الإلهية، حيث تنوب ذاته البشرية وتصبح روحية تسموا على ما هو مادي زائل وترتشي إلى كل ما هو وروحاني كما تجمعت فيه الأضداد حيث يعتبر نفسه ماءا ونارًا وهواءًا وترابًا وهي كلام رباني يتخذه الصوفية كرمز عندما يكون الصوفي في حضره الله إذ عندما تتحد الأسماء تبقى الوحدة، فيقول الأمير في قصيدته:[2]

أنا الحب والمحبوب والحب جملة أنا العاشق المعشوق، سرًا وإعلانًا

من خلال القصائد التي تناولناها، حاولنا إظهار وإبراز المعاني الصوفية التي تحدث عنها الأمـــير أني وصف في هاته القصائد حالاته الصوفية وذلك لما أصبح يستمتع بروح عالية لا تخضع إلا لله، على

[1] ديوان الأمير، تحقيق ممدوح حقي، ص 211.
[2] المصدر نفسه، ص 207.

عقيدة أن الإنسان عبد لا يشتهي، وعبد من يخاف، وعبد من يطمح فيه، فمن ارتفع فوق الإشتهاء والخوف والطمع، آمن بالله أنه وحده الخالق فإذا توجه إلى الصلاة يرى أمامه الله وإذا حج يرى رب الكعبة ويؤمن بأن واجب الوجود مع كل موجود وأنه على كل شيء قدير، وهو الباطن والظاهر.

الملاحق

شيوخ الأمير و أئمته:

الحديث عن رحلة الأمير الصوفية، يدعونا لمعرفة الشيوخ والأئمة الذين ساهموا في تعليمه، وبث روح التصوف فيه، فالنبي **محمد صلى الله عليه وسلم** هو أول شيوخ الأمير مقتديا بمبادئه وسننه.

أمّا الشيخ الثاني فهو الشيخ **محي الدين ابن عربي** الذي اعتبره الأمير خزانته التي يستفيد منها فيما يكتب، ويأتي بعده الشيخ **محمد الفاسي** و الذي بدأت علاقته به أثناء خلوته الصوفية بمكة،و الشيخ **محمود القادري الكيلاني**، فلم يكتفي الأمير بما أخذه عن شيوخه بل أضاف عليها، يقول: " وقد تكلم أمامنا محي الدين ابن عربي على هذه المسألة بغير هذا"[1]، وهذا دليل على أنه أضاف الجديد على ما أخذه عن الشيوخ المتصوفة، وقد ظهرت شخصية الأمير الصوفية بشكل بارز من خلال مؤلفاته و أهمها " **الديوان**"، الذي رافق وصور مراحل حياة الأمير منذ شبابه حتى وفاته، فديوانه كان له أكبر تأثير في قلوب قُرائه، فيه عرفت قيمة الأمير لمن كان يجهلها، وزادت وضوحا لمن يعرفه كبطل سياسي ومجاهد كريم وشاعر ورجل صوفي.

[1] المواقف، ج1،الموقف11،ص38.

الأمير عبد القادر الجزائري

خاتمة

خاتمة:

ختاما لبحثنا هذا توصلنا الى نتائج ونقاط من خلال ماقدمناه ولوكان بالقدر القليل مقارنة بعظمة هاته الشخصية التي ظهرت في تاريخ الامير عبد القادر (الجزائري)،فهو رجل صوفي زاهد متعبد لله تعالى ، وهذا كان محط لدراستنا من خلال ديوانه التي ظهرت فيه وقد وظف اسمى المعاني الصوفية في صور ورموز انعكست في الخمريات والغزل الصوفي والظاهر والباطن والغيب ، نستخلص الى مايلي : استنتجنا من هذا البحث انه هناك ارتباط بين الشعر والتصوف وهو ما تجلى فيما انتجه الامير بالنظر الى ديوان الامير الذي تتوزع قصائده بين البطولة والتصوف الخبر الذي شغله الشعر الصوفي او القصائد التي لها مترعا صوفيا تعكس شخصية الامير ونظرته للحياة والوجود اكتسب ديوان الامير معجما مصطلحا خاصا على غرار المعنى اللغوي فقد خصت بعض القصائد لمصطلحات صوفية تستلزم الاحاطة ومعرفتها مضامنها وحقولها الخاصة والتي تحيل الى معان عند المعاني المتداولة والتي تفتح بابا على دلالات خاصة وتأويلات نازعة لا تفهم الا من خلال فهم تلك المصطلحات حتى تفهم معاني ومغازي تلك الصور والتعبيرات وهذا ما يرفع من قيمة الشعر الامير ويجعل له مقاما خاصا فضلا عن ماكان من باقي شعره في الديوان فموضوع التصوف طويل ، فما هذه الا محاولة قصيرة عن مكانة واهمية هاته الشخصية وان كنا لم نصل الى ما نريد فنحن وصلنا الى ما نستطيع.

قائمة المصادر

والمراجع

المصادر والمراجع

القرءان الكريم.

1. ابن منظور،أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم :لسان العرب ،لبنان،مج 9،ط1
2. أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،دار البصائر،الجزائر،2007.
3. الأمير بديعة الحسني الجزائري:الأمير عبد القادر الجزائري حقائق ووثائق بين الحقيقة والتحريف،وزارة المجاهدين دار المعرفة ،الجزائر،2008.
4. الأمير عبد القادر الجزائري:المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد،دار النهضة العربية،دمشق،سوريا،ط1967،1.
5. الأمير عبد القادر،المواقف،ج1،ج2،دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
6. أمين يوسف:تأويل الشعر وفلسفة عند الصوفية،جامعة آل البيت،الأردن،ط1، 2008.
7. ديوان الأمير عبد القادر،تح:محمود حقي،دار اليقظة العربية،ط2، 1964.
8. زكريا صيام ديوان الأمير عبد القادر ،ديوان المطبوعات الجامعية.
9. شارل هنري تشرشل:حياة الأمير عبد القادر،ترجمة: أبو القاسم سعد الله
10. عبد الحكيم حسان :التصوف في الشعر العربي الإسلامي نشأته وتطوره دار المغرب للدراسات والنشر،سوريا،2010.
11. عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة،دار الفكر ،لبنان،ط1، 2004.
12. عبد الرزاق ابن السبع:الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه،الكويت،2000.
13. عبد الرزاق نوفل:التصوف والطريق إليه،دار الكتاب العربي،بيروت،لبنان،1980.
14. عبد القادر الجزائري:ذكرى العاقل وتنبيه الغافل،تحقيق وتقديم ممدوح حقي،مكتبة الخانجي للطباعة والنشر ،القاهرة،ط1972،1.
15. فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للفنون، 1985.

16. محمد إبراهيم الجيوشي:بين التصوف و الأدب،مكتبة الأنجلو المصرية،دط،1964.

17. محي الدين ابن عربي: ترجمان الأشواق، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1،2005.

18. ممدوح الزوبي: معجم الصوفية، دار الجيل، لبنان، ط1، 2004.

19. اللمع في التصوف، نقلا عن كتاب الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرًا.

عنوان المذكرة: المنحى الصوفي في شعر الأمير عبد القادر

تهدف الدراسة الموسومة بالمنحنى الصوفي في شعر الامير عبد القادر الى الوقوف على مفهوم التصوف والمنحى الصوفي من خلال شعره وقد وقفنا على انتقاء اهم المعاني الصوفية كالخمريات والغزل الصوفي وحدة الوجود الغيب والظاهر والباطن وكليا تها في شعر الامير.

الكلمات المفتاحية :التصوف ، الامير عبد القادر الجزائري ، الخمرة، الغزل الصوفي، الظاهر والباطن.

The title: The Sufi trend in the poetry of Emir Abdelkader

The study, which is tagged with the mystical curve in the poetry of Prince Abdul Qadir, aims to identify the concept of Sufism and the mystical curve through his poetry.

Keywords: Sufism, Prince Abdul Qadir Al-Jazaery, Al-Khamra, Sufi yarn, external and internal.